باب القرد والغَيْلَمِ[1]

قالَ دَبْشَليمُ المَلِكُ لِبَيْدَبا الفيْلَسوفِ: قدْ سَمِعْتُ هذا المثَلَ فاضْرِبْ لي مثَلَ الرَّجُلَ الذي يَطْلُبُ الحاجةَ فإذا ظَفِرَ بها أضاعَها.

قال الفيْلَسُوفُ: إنَّ طلَبَ الحاجَةِ أهْوَنُ منَ الاحْتِفاظِ بها، ومَنْ ظَفِرَ بحاجةٍ ثمَّ لمْ يُحْسِنِ الْقيامَ بها أصابَهُ ما أصَابَ الغَيْلَمَ. قال المِلِكُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

قال بَيْدَبا: زَعمُوا أنَّ قِرْداً كانَ مَلِكَ القِرَدَةِ يُقالُ لهُ: ماهِرٌ وكانَ قدْ كَبِرَ وهَرِمَ، فوَثَبَ عليْهِ قِرْدٌ شابٌ منْ بيْتِ المملَكَةِ فتَغلَّبَ عليْهِ وأخَذَ مكانَهُ فخرَجَ هارِباً على وجهِهِ حتى انْتَهَى إلى السَّاحلِ فوَجَدَ شجَرَةً منْ شجَرِ التِّينِ فارْتَقى إليْها وجعَلَها مُقامَهُ فبينما هوَ ذاتَ يوْمٍ يأكلُ منْ ذلكَ التِّينِ إذْ سَقَطَتْ منْ يدِهِ تِينةٌ في الماءِ فَسَمِعَ لها صَوْتاً وإيقاعاً[2] فجعَلَ يأكلُ ويَرْمِي في الماءِ فأطْرَبَهُ ذلكَ فأكثرَ منْ طرْحِ التِّينِ في الماءِ، وثَمَّ[3] غَيْلَمٌ كلَّما وقَعَتْ تِينَةٌ أكلَها، فلمَّا كَثُرَ ذلكَ ظَنَّ أنَّ القِرْدَ يَفْعَلُ ذلكَ لأجْلِهِ فرَغِبَ في مُصادَقَته وأنسَ إليْهِ وكلَّمَهُ وألِفَ كلُّ واحدٍ منْهُما صاحبَهُ.

طالَتْ غَيْبَةُ الغَيْلَمِ عنْ زَوْجَتِهِ فجزِعَتْ عليْه وشكَتْ ذلكَ إلى جارَةٍ لها وقالتْ: قدْ خِفْتُ أنْ يكُونَ قدْ عَرَضَ لهُ عارِضُ سُوءٍ فاغْتالَهُ، قالتْ لها:

---

(١) الغيلم: ذكر السلحفاة.

(٢) الإيقاع: اللحن.

(٣) ثَمَّ: هناك.

إِنَّ زَوْجَكِ في السَّاحلِ قدْ أَلِفَ قِرْداً وأَلِفَهُ القِرْدُ فهُوَ مُؤَاكِلُهُ ومُشارِبُه وهوَ الذِي قطَعَهُ عنْكِ ولا يَقْدِرُ أنْ يُقيمَ عنْدَكِ حتى تَحْتالِي لِهلاَكِ القِرْدِ قالتْ: وكيْفَ أصْنَعُ؟ قالتْ جارَتُها: إذا وصَلَ إِلَيْكِ فتَمارَضِي فإذا سألكِ عنْ حالِكِ فقُولي إنَّ الأطباءَ وصَفُوا لِي قَلْبَ قِرْدٍ، ثمَّ إنَّ الغَيْلَمَ انْطلقَ بعْدَ مدَّةٍ إلى مَنزِلِهِ فوَجَدَ زوْجَتَهُ سيِّئةَ الحالِ مَهْمُومة، فقالَ لها: ما لي أرَاكِ هكذا؟ فأجابَتْهُ جارَتُها وقالتْ: إنَّ زوْجتَكَ مَرِيضةٌ مِسكينةٌ، وقدْ وصَفَ لهاالأطِبَّاءُ قلْبَ قِرْدٍ وليْسَ لها دَواءٌ سِواهُ.

قالَ الغَيلَمُ: هذا أمْرٌ عَسيرٌ مِنْ أيْنَ لنا قلْبُ قِرْدٍ ونحنُ في الماءِ، ولكنْ سأحْتالُ لِصَديقي. ثمَّ انطلَقَ إلى ساحلِ البحْرِ فقالَ لهُ القِرْدُ: يا أخي ما حبَسكَ عنِّي؟ قالَ له الغيْلَمُ: ما حبَسَني عنْكَ إلاَّ حَيائي فلمْ أعْرِفْ كيْفَ أجازِيكَ على إحْسانِكَ إليَّ، وأرِيدُ أنْ تتِمَّ إحْسانَكَ إليَّ بزيارتِكَ لي في مَنزِلي فإني ساكِنٌ في جَزيرَةٍ طيِّبةِ الْفاكِهةِ، فارْكَبْ ظَهْرِي لأسْبَحَ بكَ، فرَغِبَ القِرْدُ في ذلكَ ونَزَلَ فرَكِبَ ظَهْرَ الغَيْلَم فسَبَحَ بهِ حتى إذا تَغَلْغَلَ في الماءِ عَرَضَ لهُ قُبْحُ ما أضْمَرَ في نفْسهِ منَ الغَدْرِ فنكَسَ رأسَهُ.

قال لهُ القِرْدُ: ما لي أراكَ مُهتَمًّا؟ قال الغَيْلَمُ: إنما هَمِّي لأني ذَكرْتُ أنَّ زوْجتي شدِيدَةُ المرَضِ وذلكَ يَمنَعُني منْ كَثِيرٍ ممَّا أريدُ أنْ أبلُغَهُ منْ كَرامتِكَ ومُلاطفَتِكَ. قال القرْدُ: إنَّ الذِي أعْرفُ منْ حِرْصِكَ على كَرامتي يَكْفِيكَ مؤُونةَ التكلُّفِ، قال الغَيْلَمُ: أجَلْ، ومضَى بالقِرْدِ ساعةً ثمَّ توَقَّفَ بهِ ثانيةً، فَساءَ ظَنُّ القرْدِ وقالَ في نفْسهِ: ما احْتباسُ الغَيْلَم وإبْطاؤُهُ إلاَّ لأمرٍ ولسْتُ آمِناً أنْ يكونَ قلبُهُ قدْ تَغيَّرَ لِي وحالَ عنْ مَوَدَّتي فأرادَ بي سُوءًا، فإنهُ لا شيءَ أخَفُّ وأسرَعُ تَقلُّباً من القلْبِ، وقدْ يُقالُ: يَنبغي للْعاقلِ ألاَّ يَغْفُلَ عنِ الْتِماسِ ما في نفْسِ أهْلهِ وولَدِه وإخْوانِهِ وصَدِيقهِ عنْدَ كلِّ أمرٍ وفي كلِّ لَحْظةٍ وكلمَةٍ وعنْدَ القِيامِ والقُعود وعلى كلِّ حالٍّ، فإنَّ ذلكَ كلَّهُ يَشْهَدُ على

ما في الْقلوبِ، وقدْ قالت العلماءُ: إذا دَخلَ قلْبَ الصَّدِيقِ منْ صدِيقهِ ريبةٌ فلْيأخُذْ بالْحَزْمِ في التَّحَفُّظِ منهُ. ولْيَتَفَقَّدْ ذلكَ في لحظاتِه وحالاتهِ، فإنْ كانَ ما يَظُنُّ حقًّا ظَفِرَ بالسَّلامةِ، وإنْ كانَ باطِلاً ظَفِرَ بالْحَزْمِ ولمْ يضُرَّه ذلكَ.

ثمَّ قالَ للغَيْلَمِ: ما الذي يَحْبِسُكَ وما لِي أراكَ مُهْتَمًّا كأنكَ تُحدِّثُ نفْسَكَ مرَّةً أخرَى؟ قال: يَهُمَّني أنكَ تأتي مَنزِلي فلا تَجِدُ أمرِي كما أحِبُّ لأنَّ زوْجتي مرِيضةٌ. قال القرْدُ: لا تَهْتَمَّ فإنَّ الهمَّ لا يُغْني عنكَ شَيئاً ولكنِ التَمِسْ ما يُصْلِحُ زوْجتَكَ منَ الأدْوِيةِ والأغْذِيةِ، فإنهُ يُقالُ: لِيَبْذُلْ ذوُو المالِ ما لَهمْ في ثلاثةِ موَاضِعَ: في الصَّدَقَةِ، وفي وقْتِ الحاجةِ. وعلى النسَاءِ. قال الغَيْلَمُ: صدَقْتُ، وقدْ قالتِ الأطِبَّاءُ إنهُ لا دَوَاءَ لَهَا إلاَّ قلْبُ قِرْدٍ. فقالَ القَرْدُ في نفْسهِ: وا أسَفاهُ لقدْ أدْرَكَني الحِرْصُ والشَّرَهُ على كِبَرِ سنِّي حتى وَقَعْتُ في شَرٍّ وَرْطةٍ. ولقدْ صَدَقَ الذي قال يَعيشُ الْقانعُ الرَّاضِي مُسترِيحاً مُطْمئنًّا وذُو الحرْضِ والشَّرَهِ يَعيشُ ما عاشَ في تَعَبٍ ونَصَبٍ[1] وإني قدِ احتَجْتُ الآنَ إلى عَقْلي في الْتِماسِ المَخْرَجِ ممَّا وقَعْتُ فيهِ ثمَّ قال للغَيْلمِ: وما منَعَكَ أنْ تُعْلِمَني عندَ مَنزِلي حتى كُنْتُ أحْمِلُ قلْبي مَعي وهذهِ سُنَّةٌ فِينَا مَعاشِرَ القِرَدَةِ إذا خَرَجَ أحدُنا لزِيارةِ صَدِيقٍ خَلّفَ[2] قلْبَهُ عنْدَ أهلهِ أوْ في موْضِعِه لِنَنْظُرَ إذا نظَرْنا إلى حَرَمِ المَزُورِ وليْسَ قُلوبُنا معَنا. قال الْغَيْلمُ: وأيْنَ قلْبُكَ الآنَ؟

قال: خَلَّفتهُ في الشَّجرةِ فإنْ شئْتَ فارْجِعْ بي إلى الشجرَةِ حتى آتِيَكَ بهِ. ففَرِحَ الغَيْلَمُ بذلكَ وقالَ: لقدْ وافَقني صاحِبي بدُونِ أنْ أغْدِرَ بهِ. ثمَّ رَجعَ بالقرْدِ إلى مكانِه، فلمَّا قارَبَ السَّاحلَ وثَبَ عنْ ظَهْرِه فارْتَقى الشَّجرَةَ. فلمَّا أبْطأ على الغَيْلَمِ نادَاهُ: يا خَليلي احْمِلْ قلبك وانْزِلْ فقدْ حبَسْتني. فقالَ

(١) النصب: التعب.

(٢) خلف: ترك.

القِرْدُ: هَيْهاتَ أتظُنّ أني كالحِمارِ الذي زَعَمَ ابْنُ آوَى أنهُ لَمْ يكُنْ لهُ قلْبٌ ولا أُذُنانِ. قال الغَيْلَمُ: وكيْفَ كان ذلكَ؟

[حكاية الأسد والحمار وابن آوى المكَّار]

قال القِرْدُ: زَعمُوا أنهُ كانَ أسدٌ في أجَمَةٍ وكانَ معهُ ابنُ آوَى يأْكلُ منْ فضَلاتِ طَعامهِ، فأصابَ الأسدَ جَرَبٌ وضَعُفَ ضُعْفاً شديداً وجُهِدَ فلمْ يَسْتطِعِ الصَّيْدَ، فقالَ لهُ ابْنُ آوَى: ما بالُكَ يا سيِّدَ السِّباعِ! قدْ تَغيَّرَتْ أحْوالُكَ؟ قال: هذا الجَرَبُ الذي قدْ أجْهَدني وليْس لهُ دَواءٌ إلاَّ قلْبُ حِمارٍ وأُذُناهُ. قال ابْنُ آوَى: ما أيْسَرَ هذا! وقدْ عَرَفْتُ بمكانِ كذَا حِماراً مع قَصَّارٍ[1] يَحْمِلُ عليْهِ ثِيابَهُ وأنا آتِيكَ بهِ، ثمَّ دَلَف[2] إلى الحِمارِ فأتاهُ وسلَّمَ عليْه وقالَ: ما لِي أراكَ مَهْزُولاً؟ قال: ما يُطْعِمُني صاحِبي شيْئاً. فقالَ لهُ: كيْفَ تَرْضَى المُقامَ معهُ على هذا الحالَ؟ قال: ما لِي حِيلةٌ للْهرَبِ منهُ فلسْتُ أتوَجَّهُ إلى جهةٍ إلاَّ أضرَّ بي إنْسانٌ فكَدَّني وأجاعني.

قال ابنُ آوَى: فأنا أدُلُّكَ على مَكانٍ مَعْزُولٍ عنِ النَّاسِ لا يَمُرُّ بهِ إنْسانٌ، خَصِيبِ المَرْعى فيهِ أتانٌ لَمْ تَرْ عيْنٌ مثلَها حُسْناً وسِمَناً. قال الحِمارُ: وما يَحْبِسُنا عنها، فانْطلقْ بنا إلَيْها. فانْطَلَقَ بهِ نحوَ الأسدِ وتَقدَّمَ ابْنُ آوى ودَخَلَ الْغابةَ على الأسدِ وأخبرَهُ بمكانِ الحِمارِ، فخرَجَ إلَيْهِ وأرادَ أنْ يَثِبَ عليْهِ فلم يَسْتطعْ لِضعْفِه، وتَخلَّصَ الحِمارُ منهُ فأفلَتَ هَلِعاً[3] على وجْهِه. فلمَّا رأى ابْنُ آوى أنَّ الأسدَ لَمْ يقْدِرْ على الحِمارِ، قال: يا سيِّدَ السِّباعِ! أعَجزْتَ إلى هذهِ الغايةِ؟ فقالَ لهُ: إنْ جِئْتَني بهِ مرَّةً أخْرَى فلَنْ يَنْجُوَ منِّي أبداً. فمضَى ابنُ آوى إلى الحِمارِ فقالَ لهُ: ما الذِي جَرَى عليْكَ، إنَّ

(١) القصَّار: الذي يبيض الثياب.
(٢) دلف: دنا.
(٣) هلعاً: فزِعاً.

الأتَانِ لِشدَّةِ غُلْمتِها[١] وهَيَجانِها وثَبَتْ عليْكَ ولوْ ثَبَتَّ لها لَلاَنَتْ لكَ. فلمَّا سَمِعَ الحمارُ ذلكَ هاجَتْ غُلْمتُهُ ونَهَقَ وأخَذَ طريقهُ إلى الأسدِ، فَسبَقَه ابْنُ آوَى إلى الأسدِ وأعلَمَهُ بمكانهِ وقالَ لهُ: اسْتعِدَّ لهُ فقدْ خَدَعْتُهُ لكَ فلا يُدْركَنَّكَ الضَّعْفُ في هذهِ النَّوبْةِ فإنهُ إنْ أفلَتَ لنْ يَعُودَ مَعي أبداً فَجاشَ جأشُ الأسدِ[٢] لتَحْرِيضِ ابنِ آوَى لهُ وخرَجَ إلى موْضِعِ الحِمارِ فلمّا بَصُرَ به عاجَلَهُ بوَثْبةٍ ٱفترَسَهُ بها. ثمَّ قالَ: قدْ ذَكَرَتِ الأطبَّاءُ أنهُ لا يُؤْكَلُ إلاَّ بَعْدَ الغُسْلِ والطُّهُورِ فاحتَفِظْ بهِ حتى أعُودَ فآكلَ قلْبَهُ وأذُنيْهِ وأتْرُكَ ما سِوَى ذلكَ قُوتاً لكَ. فلمَّا ذهَبَ الأسدُ لِيَغتَسِلَ عَمَدَ ابْنُ آوَى إلى الحِمارِ فأكلَ قلْبَهُ وأُذُنَيْهِ رَجاءَ أنْ يَتَطيَّرَ[٣] الأسدُ منهُ فلا يَأكلَ منْهُ شيئاً. ثمَّ إنَّ الأسدَ رَجعَ إلى مكانهِ فقالَ لابْنِ آوى: أيْنَ قلْبُ الحِمارِ وأذُناهُ؟ قالَ ابْنُ آوَى: أوَ لَمْ تَعْلَمْ أنهُ لوْ كانَ لهُ قَلْبٌ وأذُنانِ لمْ يَرْجِعْ إليْكَ بعْدَ ما أفْلَتَ ونَجَا من الهَلَكةِ.

وإنما ضَرَبْتُ لكَ هذا المثَلَ لِتَعْلَمَ أني لسْتُ كذلك الحِمارِ الذي زعَمَ ابْنُ آوَى أنهُ لمْ يكنْ لهُ قلْبٌ ولا أذُنان. ولكنَّكَ احتَلْتَ عليَّ وخَدَعْتَني فَخدَعْتُكَ بمِثْلِ خَدِيعتكَ فاستَدْرَكْتُ فارِطَ أمْرِي، وقدْ قيلَ: إنَّ الذي يُفْسِدُهُ الحِلمُ لا يُصْلِحُهُ إلاَّ العِلْمُ. قال الغَيْلمُ: صَدَقْتَ إلاَّ أنَّ الرَّجُلَ الصَّالحَ يَعترِفُ بزَلَّتهِ وإذا أذْنَبَ ذَنْباً لمْ يَسْتَحْيِ أنْ يؤَدِّبَ لِصدْقِه في قوْلهِ وفِعْلهِ، وإنْ وَقَعَ في وَرْطَةٍ أمكنَهُ التخلُّصُ منها بحِيلته وعَقْلهِ كالرَّجُلِ الذي يَعثُرُ على الأرْضِ ثمَّ يَنْهَضُ عليْها مُعْتمِداً.

فهذَا مَثَلُ الذي يَطْلُبُ الحاجةَ فإذَا ظَفِرَ بها أضَاعَها.

---

(١) الغلمة: سورة الشهوة.

(٢) جاش: هاج. والجأش: النفس.

(٣) يتطير: يتشاءم.